الأهرام
٤ / ٢ / ١٩٨٣

أم كلثوم فى ذكراها الثامنة !

بعد أن عودتنا على الاستمتاع بالغناء الفردى

أفادت .. أم أضرت ؟

بأسلوب علمى بحت آن الأوان لدراسة أم كلثوم كظاهرة فنية

أم كلثوم ولقطة تمثل
كل معانى خلود الفنان
عدسة الفنان انطون البير

آمـــال بكيـــر

تحدث الكثيرون عنها .. تحدثوا عن الصوت القادر .. والاداء المعبر .. وتلك الطاقة الفريدة التى كانت تجمع حولها الآلاف من المستمعين بل لن نبالغ اذا قلنا الملايين فقد كانت أول فنانة تتشدد إذان المستمع العربى ليس فى مصر وحدها ولكن على مستوى الشعوب العربية كلها نعتقد بانه وبعد مرور ٨ سنوات على رحيلها بل حتى وقبل وفاتها لايوجد الجديد الذى يمكن ان يقال او بمعنى اصح الذى لم يقل بعد عن هذه الظاهرة المتميزة .

ولعل هذه اول مرة تخرج دارسة للموسيقى العالمية والغناء الأوبرالى لتقول رأيها بصراحة تخرج دارسة باخ وبيتهوفن وتشايكوفسكى وغيرهم من عمالقة الموسيقى العالمية تلك التى اثرت فى وجدان الكثير من الشعوب واصبح التعامل معها .. مع هذه الفنون العالمية الرفيعة مقياسا لتقدم البلاد ومقدار حضارتها .

هنا فى مصر .. كانت أم كلثوم تتربع على عرش الغناء الشرقى الفردى طيلة نصف قرن ويزيد . اذن فلا بد من التعرض لهذه الظاهرة وبأسلوب علمى وممن ؟ من الذين مارسوا فى طريق مختلف تماما .. طريق الموسيقى العالمية والغناء الأوبرالى .

تقول د . سمحة الخولى رئيس اكاديمية الفنون وعميدة الكونسرفتوار – لفترة طويلة من قبل – الذى يضم لمصر ذلك الشباب الذى نعتبره وبحق الوجه المشرق فى حياتنا الثقافية والفنية من عازفين وأيضا من مغنى أوبرا .. انها باختصار تعد الشباب من فنانين وأيضا من الجمهور للاهتمام بمالفن الرفيع فى محاولة جادة لتذوق العمل الفنى أساسا على الدراسة بجانب الموهبة .

منذ أعوام قليلة رحلت فنانة مصر الكبيرة وكان لرحيل أم كلثوم صدى عنيف لانها تركت فراغا هائلا على مسرح الحياة الفنائية بل والاجتماعية . فراغا لم يقدر لأى من معاصريها أن يملأه حتى الآن .. فقد كانت أم كلثوم رمزا حيا لكل القيم التى يعجدها الانسان المصرى والشرقى فى الغناء . بصوتها وموسيقيتها وحضورها . كما كانت صاحبة شخصية قوية الجاذبية والتأثير انسانيا واجتماعيا .

وأم كلثوم ظاهرة نادرة ، لاتتكرر كل جيل (وليست ممن يعتقدون بأن جيل اليوم افضل من جيل الغد ولذلك لا اقول انها ظاهرة لن تتكرر . فهذا ضد طبيعة الأشياء) أم كلثوم ، ظاهرة ، بحكم تأثيرها العميق والطاغى على مسرح الحياة الفنائية الموسيقية فى مصر طوال ما يناهز نصف القرن . فقد كان صوتها وغناؤها من العوامل الجوهرية التى شكلت الحياة الوجدانية للشعب المصرى فى فترة من أهم وأخطر فترات تاريخه. وكانت فنونها وغناؤها من العناصر الجوهرية التى ميزت البيئة الموسيقية لمصر فى تلك الفترة ... الى حد يثير التساؤل .. ما الذى كان يمكن أن تكون عليه أصوات الغناء والموسيقى فى مصر بدون أم كلثوم . إبان حياتها وبعد رحيلها ؟ ؟

والآن بعد أن هدأت الانفعالات فقد آن الاوان لكى نعرس هذه الظاهرة الفنائية الاجتماعية ، ظاهرة أم كلثوم وبراسة من ملران خاص . ذلك لان حجم ظاهرة أم كلثوم وعمق اثرها أكبر بكثير ممن أن تنسى بعد افلامهم الغنائية .. أو الأغنية أو أسماء بعض الكوبليهات أو البرامج الاعلامية الصوتية العالمية والشهر المقتصرة تحتفل بفنانيها بأن ترتفع بهم الى مستوى البحث العلمى وأن تضع اعتماداتهم موضع التقييم .

وقد يدهش البعض أن أطالب بأن تكون أم كلثوم موضع دراسات وبحوث علمية متعددة تحيط بشخصيتها كظاهرة هائلة وتتناول أثرها على أسلوب الغناء العربى المعاصر وأثرها على مسار التطور الموسيقى فى مصر ، وتأثيرها على أسلوب الاستماع وتقاليده فالحق أن ظاهرة أم كلثوم تثير قضايا موسيقية وغنائية وثقافية واجتماعية بالغة الاهمية . سأكتفى هنا بالاشارة الى بعضها : هل تدرس أم كلثوم من زاوية صوتها . كصوت قوى بالغ الدقة فى أداء الايعاز . أم تدرس براعتها فى الاداء الغنائى وقدرتها على التصرف المرتجل فى الزخارف الغنائية بابتكار خلقت ؟ والى أى حد يعتمد هذا التصرف الارتجالى على الثقافة والى أى حد ينبع من خبرة وتمكن متقن ؟ وهل يدرس صوت أم كلثوم باعتباره صوتا فذا فى قوته ورنينه وصموده لعبء مواجهة الجماهير فى غناء يتصل بضع ساعات من العشاء الفنى والعصبى .. بما يفوق مفهوم « الريسيتال » (حفل الصرف او الغناء الذى يقوم به كله فنان فرد وحده)الغربى ؟ أم هل تدرس أم كلثوم من زاوية ماقدمته للمجتمع من الفن الغنائى الذى تشربت عليه اجيال متعاقبة من المصريين وتغلغل فى تكوينها الوجدانى وشكل نفسياتها الى حد لايمكن تجاهله ؟

واذا تأملنا القوس الكبير الذى اتخذه غناء أم كلثوم نجده قد بدأ بقصائد الشيخ ابى العلاء محمد . صارا بأغانى القصبجى العاطفية وطقاطيقه الخفيفة لها . ثم بقصائد السنباطى . ثم تستوقفنا اغانى افلامها الناجحة . « وداد » ، سلامه . (وهو يمثل اتجاها ملحوظا نحو اقرار النسيج الموسيقى للغناء لاكتساب مزيد من التعبير) وفاطمة وغيرها ثم الحان محمد عبد الوهاب لها . هذا القوس الكبير . بكل ما يحمله من اتجاهات وتيارات . هل نعتبره توجيها من أم كلثوم ومشاهير ملحنيها لمسار الغناء فى مصر ؟ أم نتناوله باعتباره استجابة ومسايرة من أم كلثوم ومشاهير ملحنيها لروح العصر ونزعات التجديد . ؟ ؟ وهذه التساؤلات كلها تتطلب بحوثا علمية ، لكى نصل فى النهاية الى تقييم موضوعى للأثر الثقافى والموسيقى لأم كلثوم على المجتمع المصرى . أما الأثر الاجتماعى لأم كلثوم فهو بحاجة لجهود علماء الاجتماع والمتخصصين فى دراسات وسائل الاتصال الجماهيرى . ذلك أن أم كلثوم قد استقطبت القدر الأكبر من طاقة الاستماع الغنائى لدى الجمهور المصرى . وحولتها بشخصيتها وصاحبها نحو تمجيد للفنان الفرد . فهل كان لهذا النماح الجماهيرى الساحق اثر ايجابى أو سلبى على نفوس الجماهير ؟

وبعد فهذه كلها قضايا تلح على الأذهان وقد آن الأوان أن تتناولها المعاهد الموسيقية بل والجامعات كل من زاويته وبأسلوب علمى بحت . وقد بدأ الكونسرفتوار بالفعل قسم لعلوم الموسيقى (الموبكولوجى) تنقسم الدراسات فيه الى ثلاث شعب . دراسات الموسيقى العربية المعاصرة . والدراسات التاريخية ودراسات الموسيقى الشعبية وفى اطار هذه الدراسات يرجى أن يقوم الشباب الموسيقى الدارس بواجبه فى دراسة هذه الظاهر الفريدة ، ظاهرة فنانة الغناء العربى أم كلثوم .

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية